جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ

أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

المحاضرة الخامسة: مصادر تاريخ الجزائر في العصر الوسيط (تابع)

2- كتب التراجم والسير:

1.2- كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لـ "أبي بكر بن عبد الله بن محمد المالكي" المتوفى حوالي 474هـ/1081م: جمع المؤلف في هذا الكتاب من كان في القيروان من العلماء والمتفقهين والزهاد والعباد والأولياء والمتفقهين، ومن كان بمراسي إفريقية وسواحلها ومراسيها وحصونها منهم، فهو يتضمن تراجم وافية وسير هؤلاء، وكذا تراجم وسير الصحابة والتابعين الذين دخلوا إلى بلاد المغرب زمن الفتح الإسلامي، ويعتبر كتاب رياض النفوس من الكتب القيمة والمصادر النفيسة التي تؤرخ لعمليات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فقد وقف على مجمل الروايات والأحداث التاريخية المهمة التي ذكرها المؤرخون السابقون.

كما يقدم معلومات مهمة في فضل وأهمية إفريقية، بحيث أفرد لنا نصوصا عن مدينة المنستير ورباطها، ومدينة القيروان وظروف تأسيسها وتشييدها وبناء مسجدها، بالإضافة إلى ذلك يزودنا المالكي بمعلومات حول القادة الفاتحين بدءا بـ معاوية بن حديج، وولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري على مصر، وفتوحات عقبة بن نافع الفهري وأبي المهاجر دينار وغيره من الفاتحين، ويؤرخ كذلك بشيء من التحليل والتمحيص لأحداث مقاومة أهل السنة بالقيروان للدعوة الشيعية التي حاول عبيد الله المهدي وخلفاؤه من بعده فرضها على سكان بلاد إفريقية، ونجده في بعض المرات مهتما بأخبار المرابطة في المعاقل والحصون التي أنشأها عرب إفريقية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، لمواجهة هجمات الروم لسواحل المغرب الإسلامي، وتوصيف الحياة اليومية للمرابطين في تلك الحصون والرباطات خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة.

2.2- كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لـ أبي العباس الغبريني (ت 704هـ/1304م): يعتبر الكتاب مصدرا هاما للباحث في تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، فقد تضمن تراجم وسير لعلماء بجاية ونواحيها خلال القرن السابع الهجري، فهو لم يكتف بذكر شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، بل وسع نطاق تأريخه للشخصيات وعلماء وفقهاء زمانه وذكر فضائلهم وما نسب إليهم من أعمال فكرية وعلمية، وبعض العلوم التي نبغوا فيه، ومدى تجابهم مع مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى بحكم مكانة حاضرة بجاية خلال العصر الوسيط.

فقد ترجم لـ "البجائيين وعلماء المغرب الأوسط عموما، والأندلسيين المهاجرين إلى بجاية ونواحيها، والغرباء الوافدين على بجاية ونواحيها من اهل المشرق وغيرهم"، كما يكشف عن الازدهار العلمي والأدبي الذي كانت يشهده المغرب الأوسط، وحاضرة بجاية بالخصوص، فهو يقد لنا معلومات دقيقة تصويرية للنشاط التعليمي وواقعه في تلك المرحلة، وطرق تلقين العلوم والمناهج المتبعة والمواد المدرسة واصفا الحلقات العلمية التي كانت تجمع المشايخ بطلابهم، والمراكز التي كانت تقام فيها تلك الحلقات.

3.2- كتاب الحلة السيراء لمؤلفها عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بـ "ابن الأبار" (ت658هـ/1260): تضمن هذا الكتاب حوالي 216 ترجمة تناول فيها الأمراء والوزراء والكتاب وأصحاب الجاه، والعلماء الذين نظموا الشعر في المغرب والأندلس من بداية القرن الأول إلى منتصف القرن السابع الهجريين، ينفرد كتاب الحلة السيراء عن غيره من كتب التراجم والسير الأخرى من حيث

المنهج، فقد رتب معلوماته على أساس الترتيب الزمني ولم يتبع الترتيب الأبجدي وهي طريقة كرونولوجية تتيح للدارس مهمة تتبع المراحل التاريخية بسهوله وسلاسة نظرا لحصر الشخصيات التاريخية ضمن إطارها الزمني والجغرافي في دراسته وهو أمر مستحسن لدى معظم الباحثين.

3- كتب الرحلات الجغرافية:

1.3- كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري (ت 487هـ/ 1094م): هو من أشهر الجغرافيين في بلاد الأندلس ولد في.....وأهم مؤلفاته كتاب "المسالك والممالك"، ومع أن الكتاب هو كتاب رحلة جغرافية غير أنه يحتوي على الكثير من المعلومات التاريخية المهمة، فقد تتلمذ على يد العذري وابن عبد البر في قرطبة، وعمل في بلاطات الأمراء، حيث عمل سفيرا لأمير ألمرية، كما قام بمهمة ديبلوماسية مع حاكم إشبيلية "المعتمد بن عباد"، ولما فتك به المرابطون رجع إلى قرطبة متفرغا للمطالعة والتأليف، رغم ميله للخمر والمجون، فقد كان جغرافيا واسع الاطلاع وعالم نبات دقيق متمكن، وما يهمنا من كتاب "المسالك والممالك" هو الجزء المتعلق بالمغرب الإسلامي والذي يحمل عنوان: "المُغرب في ذكر بلاد أفريقية والمَغرب" وقد اعتمد بشكل كبير على كتاب المؤرخ "محمد بن يوسف الوراق" الذي يحمل نفس الاسم "المسالك والممالك".

يكشف الكتاب عن معرفة البكري العميقة بطرق القوافل الممتدة عبر شمال الساحل المتوسط، وتلك التي تخترق الصحراء الكبرى نحو بلاد السودان جنوبا، وبينت الأبحاث في المواقع الأثرية الصحراوية والإفريقية سلامة معلومات البكري عن العمران ومسالك الطرق والقوافل والمسافات بين الآبار والمحطات التجارية.

2.3- كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي: كان تأليف هذا الكتاب تلبية لدعوة ملك صقلية روجر الثاني (1095-1154م)، الذي دعاه ليضع له صورة للأرض للوقوف على حقيقة العالم، وكان تأليفه في المائة السادسة للهجرة، وقد استغرق الإدريسي لإنجاز هذه المهمة خمس عشرة سنة، استفاد خلالها من كتابات الجغرافيين اليونانيين والعرب الأوائل، وقام بتقسيم العالم إلى سبعة أقاليم، معتمدًا فيها على خريطة بطليموس بعد تصحيحها، كما أنه اعتمد على المشاهدة الشخصية من خلال زيارته للأندلس، وشمال إفريقية ومصر وبلاد الشام، وكذلك آسيا الصغرى، وأجزاء من أوروبا الغربية وسواحل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وصقلية، كما أنه استعان في استقاء معلومات دقيقة بمقابلة بعض التجار والرحالة والبحارة والعلماء العارفين بغرض التأكد من سلامة المعلومات، كما أنه اعتمد على بعض الرحلات الاستكشافية التي دعما روجر الثاني بكل الوسائل المادية والمعنوية، وما يمتاز به منهج الكتاب هو أن الإدريسي يوجز في وصف البلدان ويكثر القول في ذكر المسافات، ولا يهتم كثيراً بالأحداث التاريخية.

3.3- الروض المعطار في خبر الأقطار لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري السبتي (ت726هـ/1326م): لقد استقى أغلب معلوماته عن الأندلس من البكري والإدريسي، وهو عبارة عن موسوعة جغرافية لأهم المدن والأقاليم والأمصار ويصفها على الترتيب الأبجدي مع ذكر تاريخها وما ما شهدته من أحداث تاريخية، فهو يحدد مواقع المدن المشهورة في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، وذكر أهم المجتمعات التي استوطنت فيها وسماتهم وخصائلهم، وبعض المتفرقات التي تخص إنتاجاتهم الأدبية والثقافية وغيرها، وكان منهجه في تأليف هذا الكتاب على وصف المدن وترتيبها ترتيبا أبجديا على شكل معجم، واكتفى بذكر الأماكن والمدن والأمصار المشهورة، أو الأماكن التي اتصلت بها قصة أو حدث تاريخي بارز، وقد جل معلوماته من بعض الكتب الضائعة التي لم يفصح عنها، أو من خلال مشاهداته وملاحظاته الدقيقة التي يدونها.

4- كتب النوازل الفقهية:

1.4- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والمغرب للونشريسي (ت 914هـ/ 1508م): يعتبر كتاب المعيار الذي يحتوي على 13 مجلدا وثيقة تاريخية مهمة تساعد على فهم طبيعة الحياة الاجتماعية في بلاد المغرب الإسلامي، وربما مختلف النوازل التي ضمها الكتاب هي ما تجعلنا نستشعر ذلك ونفهمه، فهي كانت تعالج الواقع الذي كان يحياه المجتمع آنذاك بجميع تفاصيله، وتسلط الضوء على المستجدات التي كانت تطرأ عليه في شكل مشاكل يومية تحتاج فتاوى فقهية وشرعية تتوافق مع القيم الدينية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت تحكم المجتمع، فالمؤلف جمع في كتابه فتاوى المتقدمين والمعاصرين له من علماء المذهب المالكي، فهو يذكر بعض النوازل والفتاوى التي لم ترد في المصادر السابقة كونه جاء متأخرا عنهاوبذلك تغطي نوازل الونشريسي تراثا فقهيا وإنتاجا فكريا لمدة ستة قرون بداية من القرن الثالث الهجري إلى غاية القرن التاسع الهجري.

ونظرا لضخامته فإنه يحتوي على نوازل فقهية مهمة تؤرخ لمظاهر الحياة الاجتماعية في المغرب الإسلامي، ومختلف العادات والتقاليد والأعراف التي كانت شائعة آنذاك ورأي الشرع الإسلامي فيها، فهي تعكس بذلك جل اهتمامات مجتمع العصر الوسيط وطبيعة تفكيره وأهم احتياجاته ومختلف الحاجات التي تشغله، كما يزخر كتاب المعيار بكثير من النوازل التي تخص المعاملات المالية كونها عنصرا أساسيا لضبط الجوانب الشرعية والاقتصادية، كمعالجة بعض المسائل المتعلقة بالنقود والسكة التي كانت تضرب آنذاك وما تعلق بها مشاكل التزوير والمنع والتقنين، وتحديد المكاييل والأوزان وما تعلق بها من الضبط والجواز والتحريم.

وفي ذات السياق؛ نرى بأن نصوص ونوازل الونشريسي تعد مصدرا نفيسا بالغ الأهمية، في دارسة الحياة العلمية والثقافية في تاريخ المغرب الإسلامي، فهي تقف شاهدة على الحضور القوي للفقهاء في توجيه وترشيد الحياة العلمية والتربوية في مجتمعات العصر الوسيط الإسلامي، فقد خصص المؤلف الجزء السابع من الكتاب لفتاوى الأحباس، حيث تحدث عن المسائل المتعلقة بالتعليم ومؤسساته، وأمدنا بمعلومات نفيسة حول الحلقات الدراسية بالجوامع والمدارس، وشروط التحاق الطلبة بالمدارس وأوقات التدريس ، وحكم الأجرة على التعليم والعطل المدرسية...إلخ.

2.4- الدرر الكامنة في نوازل مازونة لأبي زكرياء يحيى المغيلي التلمساني (ت 883هـ/1478م): يعالج المغيلي في هذا الكتاب مسائل وقضايا تتعلق بمجتمع المغرب الإسلامي والمغرب الأوسط خصوصا، فإضافة إلى فتاويه الشخصية؛ يعرض المازوني كذلك فتاوى لعلماء تلمسان وبجاية وتونس وفاس ومليانة، فهو يعرض في القضية الواحدة آراء عدة فقهاء ويبدي وجهة نظره في المسائل المطروحة، وقد صرح الشيخ المازوني أن سبب تأليفه لهذا الكتاب هو كثرة المسائل والشكاوي والنوازل التي كانت تفد إليه من مختلف المدن والأمصار كونه كان قاضيا، وما كان له من مذاكرات مع مختلف المشايخ والعلماء، فأراد أن يجمع ذلك في مصنف يتألف من مقدمة وتسعة عشر فصلا على شكل أبواب الفقه، كل باب يحتوي على مجموعة من المسائل.

3.4- نوازل البرزلي لأبي القاسم أحمد بن محمد البرزلي (ت841هـ/ 1438م): يعد كتاب الفتاوى للإمام البرزلي المسمى بـ: (جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام) من أهم كتب الفتاوى والنوازل عند المالكية المتأخرين، فهو موسوعة فقهية، حوت كما هائلا من المسائل الفقهية، ويزخر هذا الكتاب بمعلومات في غاية الأهمية عن مجتمع المغرب الإسلامي في النصف الأول من القرن 9هـ، بحيث يوفر لنا وصفا دقيقا للواقع الاجتماعي آنذاك، وأهم المسائل الفقهية والعقائدية والأخلاقية التي تنظم تسير علاقات الأفراد مع بعضهم البعض، من خلال تحديد الواجبات والحقوق والواجبات وتبيان الحلال والحرام وأحكام الجزاء والعقاب، بما يتوافق مع أحكام الشرع الإسلامي والأعراف المتفق عليها.

5- كتب الحسبة:

1.5- ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب: لقد ضم ليفي بروفنسال في دراسته لوظيفة الحسبة والمحتسب ثلاثة رسائل: فالأولى بعنوان رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة لمؤلّفها إبن عبدون محمد بن أحمد التيجيبي، والثانية بعنوان "رسالة في آداب الحسبة والمحتسب" لمؤلفها ابن عبد الرؤوف أحمد بن عبد الله، والثالثة بعنوان "رسالة في الحسبة" لمؤلفها الجرسيفي عمر بن عثمان بن العباس.

وقد أفادتنا هاته الرسائل بمجمل مواضيعها في تكوين فكرة شاملة عن الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية التي كانت تمر بها بلاد المغرب الإسلامي، بحيث أنها كشفت لنا عن كثير من الظواهر الاجتماعية السلبية التي صاحبها الانحلال الأخلاقي وانهيار القيم التربوية والمبادئ الأخلاقية، كما أنها كشفت لنا جانبا مظلما عن النظام المالي، من خلال معالجتها لأنواع المعاملات التجارية، وقننت كثيرا من المعاملات الاجتماعية مع فئات أهل الذمة من النصارى واليهود، في إطار التعايش السلمي.

2.5-كتاب في آداب الحسبة: هو كتاب يدخل ضمن كتب الحسبة لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي، فهو يلقي الضوء على مختلف الجوانب الاجتماعية و الاقتصادية الأخلاقية التي كانت تعيشها مختلف شرائح مجتمع المغرب الإسلامي، فمن خلاله تمكنا من تقييم المستوى المعيشي لفئات المجتمع البسيط، إذ يقدم لنا صورة عامة عن الأجرة اليومية لمختلف أصحاب المهن والحرف البسيطة، كما أنه يركز على الجوانب التربوية فهو يتطرق إلى بعض المعاملات اللاأخلاقية التي طبعت المعاملات التجارية، في وقت كان دور المحتسب الحد من انتشارها ومحاولة إعادة التوازن المادي داخل المجتمع.

وبحكم أن السقطي فقيه من فقهاء الأندلس، فقد تحدث عن سبب تأليفه لهذا الكتاب بعدما لزم كثيرا من الأسفار وجال في البلاد والأقطار، وحصل في فهه، وتقرر في حقيقة علمه، من أخبار مفسدي الباعة والصناع بالأسواق، وغشهم في الكيل والميزان وبخسهم واستعمالهم الخدع للناس في معاملتهم، ولهذا السبب اشترط الصفات التي يجب توفرها في المحتسب، فيجب أن يكون فقها عارفا بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وما ينهى عنه، وأن يكون غنيا حتى لا يأكل أموال الناس بالباطل، وأن يكون عارفا بأصناف المعايش، وحيل التجار حتى يستطيع التعرف على بيوع الغش والتدليس...إلخ.